الشكل الاجتماعي للهوى في كتابة حياة شرارة رواية (إذا الأيام أغسقت اختياراً)

أ.د. عزيز حسين علي الموسوي

كلية التربية للعلوم الانسانية – جامعة المثنى

الكلمات المفتاحية: حياة شرارة، الرواية، السيميائية

الملخص:

هذا بحث في النقد الادبي الحديث، يدرس رواية (إذا الايام أغسقت) للروائية العراقية حياة شرارة، وتخذ سيميائية الاهواء منهجاً نقدينا لقراءة النص الادبي، وحياة شرارة روائية ومترجمة واكاديمية مهمة، عاشت في العراق منذ العام 1935 الى العام 1997، وعملت استاذة الادب الروسي في جامعة بغداد، وتعرضت للقمع والاضطهاد من قبل السلطة السياسية في العراق، بسبب اتجاهها الفكري الخاص، وموقفها النبيل تجاه الانسان آنذاك، كتبت في الادب الروسي، والنقد الادبي الحديث، والترجمة، وروايتها (إذا الايام أغسقت) من اهم الروايات العراقية في حقبة الحصار الاقتصادي على العراق، درسناها في ضوء المنهج السيمائي، سيمياء الاهواء بالتحديد، وقدمنا باطار نظري عن نظرية الاهواء في السيميائية، ثم درسنا هوى الخوف وهوى الجوع وهوى التعلق، وتحول هذه الاهواء الى فعل ثقافي مؤثر، ثم خرجنا الى اهم نتائج البحث، واستعملنا مصادر النقد الادبي الحديث، والسيميائية، ومصادر السرد الحديث، وقد وجدنا أن هذه الرواية تستحق الدرس والتحليل والنقد.

المقدمة:

شكَّلت حياة شرارة ملمحاً مهماً في حالة الاكاديمية العراقية، والثقافة، ودارت حولها ملامح العمق والثراء والحقيقة في فكري والسلوك، فهي استاذة وباحثة واكاديمية عرفها العراقيون بالجدية والمثابرة والاخلاص لكل ما تبنته من قيم الثقافة والجامعة والعلم، انتجت كتابة مهمة في النقد والترجمة والصحافة والسرد، عاشت مرحلة مخاض واضطراب كبيرين في الثقافة العراقية وفي صراع المثقف والانسان مع السلطة، من مرحلة الستينيات والسبعينيات والثمانينيات ومرحلة الحصار وما تمثل من مفصل كبير في الثقافة والمجتمع العراقيين، وعملت في جامعة بغداد وكلية الآداب فيها، وهذه

ساحة صراع فكري وهدف كبير للسلطة وميدان لتحولات الثقافة والمجتمع والسلطة، وكل هذا من الاهمية بمكان، فقد ولدت حياة شرارة عام 1935 في مدينة النجف العراقية، وحصلت الى شهادة الدكتوراه في الادب الروسي، وتوفيت في بغداد عام 1997، بعد أن اختارت الموت بإرادتها، وقد واجهت ما واجهته من ضغط كبير من السلطة السياسية في ذلك الزمن، من اقصاء وتهديد ومنع ونقل من الجامعة، حتى انتهى بها الحال الى الانتحار، لتترك جرحاً غائراً نديا في جبين الأكاديمية والثقافة العراقيتين.

تنضاف الى اهمية الشخصية المدروسة، اهميةُ اختيار عمل روائي مهم لحياة شرارة، وهو رواية (إذا الأيام أغسقت) تأتي مناسبته لفكرة البحث في أنه رواية سيرة ذاتية دارت في الجامعة، كشفت عن كثير من اسرار تغلغل السلطة في الجامعة وازمة الاكاديمية العراقية وازمة الذات المتنورة الاكاديمية المخلصة، هذه الرواية من رموز روايات (الحقبة)،التي انتجها الادب العراقي في التسعينيات، في حقبة الحصار، كشفت عن ازمة حقيقية عاشها المؤلف، انسحقت ذاته مع المجموع الهائل من الناس، بحوافر الجوع والخوف والقمع والحرمان والموت، فجاءت الرواية صوتاً نقياً من تلك المدينة والحقبة والحالة الانسانية الهائلة، اخترنا لدراستها منهجاً فيه مساحة كبيرة لقراءة هكذا اعمال خاصة في السرد، هو (سيمياء الاهواء)، يكشف لنا عن حالات النفس، والاهواء، وتوترات النفس واستهواءها وتجليات الهوى عندما صار له فعل ثقافي وشكل اجتماعي واضح، لا سيما وأن الرواية تقوم على انساق اهواء الخوف والجوع والتعلق وحالاتها، وتكشف عن ازمة الذات المثقفة وكيفية تحول الهوى عندها الى اثر ثقافي خاص وعام، فسيمياء الاهواء تهدف الى تحليل التنظيم الخطابي كاملاً.

وقد كرسنا القراءة في الاهواء (اهواء الخوف والجوع والتعلق) التي تجلت قيمة كبيرة في خطاب هذه الرواية، والاستهواء والتوتير الذي انتج هذه الاهواء ودفع الذات اليها، وتقنيات تقديم الاهواء وتجلياتها، وتحول الاهواء الى فعل ثقافي اجتماعي عام، واعتمدنا مصادر هذه المنهج النقدي المتكامل، من مؤلف كريماس وفونتيني الشهير (سيميائيات الاهواء، من حالات الاشياء الى حالات النفس) بترجمة سعيد بنكراد، وغيره من مصادر السيميائيات الحديثة المختصة.

التمهيد:

السيميائية، من سيمياء العمل الى سيمياء الهوى

أولا: الفكرة العامة لسيمياء الاهواء:

سيمياء الاهواء اتجاه كبير جديد في السيميائية، ابتكرته- مطورة إرث السيميائية الكبير- مدرسة باريس السيميائية، يعدُ كريماس هو رائد هذا المنهج ومؤسسه، فقد وضع له(معالم التصور الابستمولوجي الذي تتأطر ضمنه نظريته.)[1] وجعله بصورته النهائية منهجاً قاراً في قراءة الخطابات، اضاف زيادة في عمق التحليل وشموله خطابات جديدة عامة، فصارت سيميائية الاهواء تشتغل على شكل المعنى واتجاهه واثره، اتجهت (إلى تحليل خطاب النص تحليلاً بنيوياً بطريقة محايثة، تستهدف دراسة شكل المضمون للوصول إلى المعنى الذي يبنى عبر لعبة الاختلافات والتضاد، وبهذا تتجاوز بنية الجملة إلى بنية الخطاب.)[2] ، ظهرت تطبيقاتها في الخطابات متجهة في اتجاهين في سعيها في قراءة الخطابات، (يخص الأول مفهوم المعنى، والثاني طبيعة المسار التوليدي ، فالمعنى ليس مستقراً بل سيرورة ، إذ يظهر عبر مستوى تحولاته الخاصة، لذا يتبدى المعنى كمسار توليدي حيث يجب التمييز بين مستويات العمق)[3] وصرنا نجد رائدها كريماس يقول إن مسعانا في هذا الاشتغال السيميائي هو (أن نتصور النظرية السيميائية بطريقة يتحقق معها وجود حيز واسع بين البنى الأساسية – حيث تتلقى المادة الدلالية أولى تحليلاتها وتتكون في شكل دلالي – والبنى النهائية حيث تتجلى الدلالة)[4] قامت مدرسة باريس السيميائية بـ(دراسة الأشكال الاجتماعية التي تشبه في عملها عمل الأشكال اللغوية التي تفرزها اللغات الطبيعية)[5].

ولم يكن كريماس لوحده في هذا العمل، فقد ذهب اعضاء مدرسة باريس مجتمعين متعاونين، الى انتاج نظرية في السيميائية تنبثق من عمق النفس الإنسانية، متمثلة بسيميائية الأهواء بوصفها نظرية سيميائية تبدأ من حالة مكاشفة الاركان المعرفية للنظرية، إلى النهاية في صناعة مشروع التأسيس النظري لمواضيع الأهواء والتوتر، وتدرجاً فيه من الوقوف على الأفعال في علاقة الذات مع الموضوع إلى مدارسة الانفعال على الكينونة في علاقة الذات مع العالم ابيستمولوجياً ونظرياً وتطبيقياً[6]، فهي ثمرة سنين من العمل البحثي المتواصل اضطلعت به جماعة باريس السيميائية،

كشفت عن مقاربتين في دراسة الأهواء[7] الأولى: ترى بأنّ سيمياء العواطف من سيمياء الحدث، فتتخذ امثلتها بوصفها منطقاً لها في كتاب (سيميائية الأهواء من حالات الأشياء إلى حالات النفس) لغريماس وفونتني، والأخرى: ترى بأنّ البعد العاطفي ينبثق من الوضع المميز لذات العاطفة بالمقابلة مع ذات المحاكمة بالاعتماد على ثنائية (عاطفة/عقل) ، وقد وضع هذه المقاربة (جان كلود كوكيت) في كتابه (السعي وراء المعنى).

ثانياً: الهوى مركز النظرية:

تدخل سيميائية الأهواء (في سياق المشروع النقدي الذاتي للنظرية السيميائية. فالاهتمام بالبعد الهووي – بعد حصر البعدين التداولي والمعرفي- يأتي ليملأ بعض بياضات النظرية السيميائية الأساس. إنّ ظهور إشكالية الأهواء والعواطف الإنسانية في فضاء الصرح السيميائي قد أعاد مباشرة الاعتبار إلى الحياة الداخلية للذات بعدما تم استبعادها تحت إكراهات الخلفية البنيوية))[8]، وصارت سيميائية الأهواء تتعامل مع تفصيلات الشعور الإنساني، وتصل إلى مكنوناته العميقة من خلال سيرورة سيميائية كبيرة، وتشتغل على تحول اهواء النفس الى خطاب مؤثر فاعل له عمل كبير.

لم تكتفي سيميائية الاهواء بما وصلت اليه السيميائيات السابقة، وانتهت الى أنّ دراسة الابعاد التداولية والمعرفية للخطابات تركت فراغاً تمثل في إهمال الأحاسيس والعواطف والحالات الشعورية المختلفة التي تمرُّ بها الذات، على الرغم احتلالها مكانة هامة في الخطابات الأدبية.[9] وسعت الى تطوير هذا الجانب في قراءة الخطابات، ونظرت الى المعنى نظرة جديدة، عندها (المعنى هو إمساك بسيرورة لا تحديد لمضمون يوجد خارجها ، إنّه ليس محايثاً للشيء ولا للذات، إنّه حصيلة النشاط الإنساني في بعديه التداولي والمعرفي معاً)[10]

في حين إن اخطر ما في اشتغال سيميائية الأهواء، هو الهوى، الذي هو نمط حياة يستخلص كموقف انفعالي لتقديمه، بعدّه شكلاً ضرورياً لمواجهة الصلات مع العالم.[11] ، ولا تنظر هذه السيميائية الى نظرة سطحية، بل ترى أن الهوى ((ليس عارضاً أو مضافاً أو طارئاً يمكن الاستغناء عنه أو التخلص منه .. إنه جزء من كينونة الإنسان وجزء من أحكامه وميوله وتصنيفاته))[12] وتركز على العناية الفائقة ليس بالأهواء فحسب، بل بآثارها المعنوية كما تتحقق في الخطاب.[13]

ثالثاً: تطبيقاتها في قراءة الخطابات:

ما تعتني به سيميائيات الأهواء على نحو كبير، هو دراسة الذات بانفعالاتها الجسدية والنفسية، عبر ممارسات إجرائية لتتبع الآثار المعنوية في الخطاب من خلال مكونين أساسيين هما: المكون التوتري (انعكاس العالم الطبيعي على الذات)، والمكون العاطفي أو الانفعالي (منبع الأحاسيس والعواطف) ويتولد عبرهما ما يسمى بكينونة المعنى ، وخلق ما يسمى بذات الإدراك والعاطفة.[14] وهذا المنهج الحديث، بعيد عن تصور الانفعالات والعواطف بارتباطها بالوضعية النفسية للذات المقروءة، أو بإطلاق رؤية او مجموعة من الأحكام الاخلاقية أو الدينية، بل في حدود القدرة على نقلها إلى برامج وصيغ سردية تتضمّنها محكيات، تضع الهوى في سياق الخطاب المحدد التصاورات الوجودية والرغبات الواضحة التي تؤدي إلى الذات المتحققة عبر المسار السردي.[15]

رابعاً: الأثر الثقافي للأهواء.

من المهم متابعة ما وصل اليه الهوى من أثر ثقافي وصيغة اجتماعية واضحة، وفعل في الثقافة والمجموع؛ لأن الذات واهوائها لها طبيعة تواصلية، تتطلب وجود مرجعية لها في المجتمع، فالتداخل بين الذات والموضوع يتطلب التداخل بين المرجعية السوسيوثقافية والانفعالية.[16]، فتنتقل السيميائية هنا من دراسة الشعور الاعتيادي الى حالة اخرى، من انفعالية الإحساس الاعتيادية إلى الحساسية، وانفعالية الاحساس تتعامل مع المادة، والحساسية تتعامل مع الصميم الروحي للأشياء، حتى صيرت الانفعالية داخل سيميائيات الأهواء من معايير القوة والهيمنة.[17]

السيميائية تبحث في الاثر الكبير للاهواء وللذات من خلال خطابها، الاثر الواضحوليس المحدود، فالعالم العاطفي في سيميائية الأهواء يعتمد على كثافته، ومراحل تشكلاته العاطفية، والأمر لا يتعلق بالمنجزات التلفظية للعواطف، بل في تمفصل الآثار الانفعالية للفعل الهووي في الخطاب [18].

أولاً: الاهواء المهيمنة في رواية إذا الأيام أغسقت.

1. هوى الخوف.

هيمن الخوف بوصفه اكبر الاهواء في هذه الرواية، وتجلى في اتجاهات وانواع واشكال، وحالات للنفس، وظهر في مساحة كبيرة في المتن الروائي، ورافق الذات الكاتبة في عناصر الرواية كلها، وصار قلقها وهمها الاكبر، تجلى حاضراً في الشخصيات والاحداث والافكار والمكان

والذاكرة، انتشر –نصياً-على اديم الكتابة كله، لهجت به السنة الذوات كلها، حتى صار ملمحاً اجتماعيا وثقافياً لحياة الناس في تلك الحقبة، وتجاوز حالة الشعور الاعتيادية والاحساس بالخوف الطبيعي او الفردي، الى حالة مفرطة كبيرة عند الذات والمجتمع، صار الخوف هوية هذه الحقبة، تقوم عليه علاقة السلطة بالناس وبنفسها، انتشر في البلاد والعباد، ملمحاً كبيراً من ملامح احساسهم ومشاعرهم واختلاجات نفوسهم، فصارت الرواية رواية الخوف، والحقبة حقبته، والانسان ضحيته.

ومن اللافت للنظر، أن ابرز تجليات هوى الخوف في الرواية ارتبطت بـ(الكلام)، بالقول وما يتعلق به، من الحديث والتعبير والبوح، وهو خوف مرتبط بحرية الفكر، الموقف والاعتراض والتعبير والتفكير، تخاف الذات كثيراً وتفكر كثيراً، قبل ان تتحدث، يقول البطل في الرواية:(ولكن عليك أن تقرّب أذنك من شفاهي؛ لأنَّني اعتدت أن أتكلم بطريقة غريبة عليك، أنْ اتكلم همساً كي لا يسمعني أحد. لقد استبدلت الكلام بصوت اعتيادي بالوشوشة، لأنني مسكون بالخوف، لا في عقلي الواعي وحده وإنما في كل حواسي واوصالي: يداي ترتجفان إذا سمعت صوتي العالي وركبتاي تخوران وعيناي تزوغان وأرنبة أنفي تهتز وانفاسي تلهث وريقي يجف والدماء تجمد في عروقي، واصبح ظلا لا نور فيه لشكل آدمي ظاهرياً)[19]، تكشف الرواية عن حالة الخوف بالكلام، الصوت، علوه ونبرته ووضوحه، بما يرتبط بحرية الفكر والخطاب آنذاك، لاسيما في حرية الفكر في الجامعة، وما ينبغي لها من اتاحة الحرية للآراء من دون تقييد وقمع، وهذا ملمح يتوجه به الكاتب الى الافكار جميعها، الكبيرة والصغيرة، المؤدلجة والاعتيادية، ويرتبط بحالات الجسد من الارتجاف والتلعثم واختفاء الصوت، تقول: (ولكي اظل انا نفسي تعلمت ان اتكلم بهمس واعتدت أن ألتفت قبل ذلك في كل الجهات المحيطة بي حتى اكتسبت رقبتي مرونة عجيبة وصارت تستطيع أن تستدير استدارة كاملة وتعود إلى مكانها. افعل كل هذا لأتأكد أن لا أحد أرتاب به يسمعني، فأنا اخاف لاقطات الأصوات، البشرية منها والآلية، وأخشى مجساتها الحساسة التي تستطيع اكتشاف أعماق ذهني نفسه وتعرف خواطري وافكاري وتلقي عليها أنوارها الساطعة وتمسكني متلبساً بها)[20]، هنا، يندلح معنى الخوف والشعور الحاد به الى شمول مساحة كبيرة في السرد، بلفظ الخوف الصريح وبألفاظ مجاورة له، يسيطر فيها على خطاب الذات الشاعرة به، ويتحكم بها، ويقودها التصرفات وسلوك مختلف عن طبيعتها، وينطلق الى فعل اكبر، تكشفه سيمائية دراسته بوصفه هوى عميق.

الخوف جعل الاصوات تنخفض، والكلام مرعب يرتجف منه المتكلم، فالرقابة والمتابعة والقمع يثير كل ما هو خانق يغلق الافواه، فيخرج الشعور على شكل هوى نفس حاد، يقول الشخص لصاحبه:(-هش! اخفض صوتك، الحيطان لها آذان. فكر بحكمة ، ودع هذه الافكار جانباً، فلم يعد يتمسك بها غير المجانين)[21]، وقد تملكهما هذا الشعور، وصار هواهما السائد المؤثر، وثقافتهما المستحكمة التي غرق فيها الناس.

انتشر الخوف ليشمل الفرد والجماعة ايضاً، كلاهما، منه خوف الذات الفردية، الواحدة، التي تعيس الحيرة بسببه، وصارت تتحدث عن نفسها في شعورها الكبير الذي ظل يرافقها، تقول الشخصية البطل: (اطل الخوف أمام ناظري في البداية كبرق خاطف يسبي الأبصار ثم توارى. غير انه لم يغب نهائياً. بل ظل يظهر بين آونة وأخرى بدرجات تختلف في قوتها وارتفاعها وعمقها)[22]، خوف يعيش معها ويكبر في داخلها، له تجليات واتجاهات وصور، لكنه خوف واحد متجذر، خوف من سلطة العمل، التي هي صورة من السلطة القامعة في ذلك الزمن، واجهتها هذا الاداري المخيف القامع، ورقابته للأساتذة وتخويفهم، تقول الشخصية البطل:(تحول القلق في نفسي الى خوف وأنا أتصور تأخري عن المحاضرة الأولى رغم انه كان من المفروض ان أصل قبل نصف ساعة من بدئها)[23]بما جعل القلق ينمو ويتغول، ليتحول الى هوى محسوس عميق وخطير، تشرحه الشخصية بالتفصيل، تقول: (وصلت الى مبنى الكلية وسمعت صوته (العميد) يتساءل بغضب ويعلو ويزجر قبل أن اراه. زاد حجم الخوف في داخلي وبدأ يهبط إلى ركبتي وقدمي ويصعد الى حنجرتي)[24]

ومن اتجاهات هوى الخوف، خوف الذوات المجتمعة، وهو الانتشار الاجتماعي للهوى، مما جعله قيمة في الاحساس، عالية، تتجلى في المجتمع ثقافة وروحاً، تتحدث الشخصية الرئيسة في الرواية واصفةً الخوف: (لم يبق احد بمنأى عنه، فأحس به الناس بكل فئاتهم من الفقراء إلى الاغنياء الذين اعتادوا أن يكونوا بمنجاة عما يصيب العامة من ضيم وكوارث وبؤس. ولكنهم ذعروا هذه المرة هم ايضاً ومسهم الذل والاهانة والشقاء، وركعوا أمامه برؤوس منكَّسة وظلوا له ساجدين. كان نوع الاحساس به مختلفاً عند الجماعات، رآه بعضهم كخفافيش... وأحس به آخرون كجناحي طائر من نوع غريب... وشعر به غيرهم كمادة هلامية...)[25]، هيمن هذا الهوى على مجتمع كبير اصيل، بمختلف شرائحه وطبقاته، هو مطر يسقط على الرؤوس جميعها بعدالة ومساواة. فيه اشهر سمات الحياة عندهم، وهوى نفوسهم المشترك، فقد: (كان الناس يعانون ويتألمون ويستجيرون بالله تعالى ينصرهم وهم يرون أطواقاً فوق اطواق تحيط

بهم: الخوف، المرض، الجوع، العوز..)[26]، وهذه رؤية واضحة للمؤلف في فهم حالة المجتمع وتكريس ما يريد له التكريس والكشف، من احاسيس ومشاعر اكتشفها في المجتمع، انتقل بها الخطاب المقصود الى حالة كبيرة في الاهواء، فالناس جميعهم خائفون.

ووجدنا الخوف يجلبُ غيرَه من الاحاسيس والموقف وصور المجتمع وحالات الانسان، وجدنا الخوف هو الاب الشرعي لكل ما هو يضعف من الانسان ويقمع فيه، فالخوف اخذ الناس الى الذل والطاعة العمياء والهوان والانطواء، يقول البطل: (ولكن عليَّ ان اصبر وأنتظر. ما اكثر ما صبرت! صبرت بصمت، كتمثال مجرد من المشاعر، يسمع الاوامر وينفذها بطاعة، فالخوف يولد الطاعة والطاعة تولد الاستسلام، الاستسلام البارد الذليل)[27]، نعم، هو يستسلم ويصبر وينتظر، لأنه خائف بالطبع، وذليل، ولا حول ولا قوة له، دائما ما نجده يندفع الى ما هو سيء، يدفعه اليه الخوف، يقول البطل:(غير ان الخوف من المهانة والاكراه على فعل ما لا أريده كانا يدفعاني قسراً، وضد رغبتي، إلى هذه الزاوية الضيقة من الدنيا لأجد فيها الأمان وراحة البال الدائمتين اللتين أفتقدهما في عملي اليومي)[28]، انه يهرب من الخوف من الاهانة الى تركما يحب من عمل، فهو يخاف ويخاف الى ما لا نهاية.

الخوف من النهايات كان احد عناصر بناء معنى الخوف في الرواية، لا سيما نهاية العمر، أو التقدم بالعمر، وما يحمل هذا الشعور من خوف خاص، وكأن الشخصيات الروائية تشبعت الخوف في مفاصل حياتها كلها، فهذا بطل الرواية يقارن نفسه بزميلته الشابة الجميلة، يتأملها وهي تسير الى جانبه، فيتحرك هوى الخوف في نفسه، وهو كبير السن، يقول: (سرنا معاً: الربيع الضاحك والشتاء الرمادي، النجمة المضيئة والنجم الآفل)[29]، ليظل شبح الافول يحوم حول تفكيره، ويكبر في نفسه احساس مهيمن يرهقه.

فيما يتعلق بالسلطة وازماتها وحروب البلاد التي لا تنتهي، صارت الحرب محركاً مهماً لهوى الخوف، لا سيما وان الناس عرفوها كثيرا، واكتوت قلوبهم بنارها، يقول البطل متذكراً الحرب واصفاً حالتها : (كانت كلمة إنذار تثير فينا خوفاً غريزياً لقد ارتبطت بأحداث مريعة غيرت وجه الحياة بين عشية وضحاها، وبدأت صفارات الانذار التي كان صوتها المزمجر الحاد الطويل يجعل قلوبنا تخفق بفزع حتى تكاد تنخلع من مكانها)[30] ، فيكشف وصفه خوفاً عميقاً من الحرب، صار هوى كبير يحرك خطاباً يبتعد صاحبه عن كل ما يتعلق بالحرب من ويلات وموت، وتساعد ذكراه وفكرته في نمو هذا الهوى الكبير.

الخوف من كل شيء، والخوف من لا شيء، الاحساس العميق الذي يمزق الذات من داخل نفسها، ويجعلها تشتعل، وتتحول معها المدينة الى موقد خوف مشتعل، يقول البطل: (يأتي الليل.. عندئذ تطل في جوفه المعتم علامات الخوف التي تطغى عليها شمس النهار، كانت المدينة تنام مبكراً والشوارع تكاد تخلو من الناس مع حلول الظلام وابواب البيوت تغلق بالسلاسل والأقفال، ... وينام الناس في أسرتهم وينام الخوف معهم)[31]، هيمنة كبيرة للخوف في نفوس الناس، ظهرت علاماتها في النوم والليل والبيوت، صنعت قوى كثيرة هذا الخوف، السلطة والضعف والحرمان واللصوص.

2. هوى الجوع.

هذا هو الهوى الثاني حضوراً في الرواية، تجلى في صور عدة، عاشه الابطال على مختلف طبقاتهم واجناسهم وتوجهاتهم واعمارهم، جوع بالمعنى الحرفي للكلمة، شرح حالته الروائي، وفصله تفصيلا، لم يتورع من ذكر تفصيلات الطعام الدقيقة، وكرس احساس الانسان به في معدته وفمه ولسانه، رائحة الطعام ولونه وطعمه، وامنيات الناس بالحصول على شيء منه، وصف حتى لعابهم عندما يسيل بفعل الحاجة الى الطعام، الاسواق وتنهدات الناس فيها لحزنهم على ضعف حالهم، وعدم القدرة على الشراء، كلامهم في الجوع في العمل والبيوت وجلساتهم كلها، هوى عظيم وشعور كبير في نفوسهم.

منه ما ارتبط بالمجموع من الناس، ليشترك كل الناس في هوى واحد كبير، يجمع نفوسهم، هو جوع الناس، وصفه الروائي بدقة، يقول: (-أليس لديك تقاعد؟ -عندي ولكنه لا يكفي لشراء نصف كيلو غرام من الشاي! كان يسد كل حاجاتي قبل الحصار، أما الان فإنني اجوع إذا لم اعمل، ولهذا انتظر كل يوم في أحد الأمكنة من يحتاجون إلى شغلي!)[32]، هذا خوف آخر عند الانسان، خوف الجوع المتحقق.

وارتبط بوصف الجوع وتكريس مشاعره، بالحديث عن الجسد، وما يتعلق بالجوع من اعضاء وحواس، المعدة والعيون والانوف، وهذا اتاه جانباً فنياً جديداً في السرد الروائي بدخول الجسد وماليه في عملية تقديم الاهواء، يقول البطل: (اعتدت ان امر على السوق بعد انتهاء الدوام، لعلني أجد فيه بعض المواد استطيع شراءها بسعر مناسب. كنت اتألم وأنا أحس بحاجة معدتي إلى الغذاء الذي تعودت على تناوله، بينما الدكاكين ملأى بأنواع الحبوب، ... والفاكهة ... ويحرك منظرها الحواس، فالعيون تتطلع إليها واللسان يتمنى أن يذوقها والمعدة تقرقر طلباً لها، غير أن اليد قصيرة لا تستطيع أن تطالها)[33]، هذا وصف مؤلم ودقيق لحالة هذا الانسان

وحاجته الى سد رمقه بما يؤكل، وحقه في امتلاء معدته بما يحب ويشتهي، حتى صار الوصف اشد ايلاماً عندما اربط بالأسرة والاطفال، وامنياتهم بطعام معين، وارتباط كل هذا بمناسبة سعيدة اجتماعية لها وضع خاص من الحميمية وتحقيقا الامنيات والهدايا عند الناس، يقول احد الابطال: (لم اعد أستطيع تناول القيمر في الفطور مع الكاهي والقطر، الله! ما ألذه من طعام! لقد طلبت مني ابنتي في العيد الماضي أن نفطر عليه في اليوم الأول منه، لم يكن ذلك بمستطاعي فرفضت، ظلت تلح علي وتتوسل ودمعت عيناها، عندئذ صرخت بها ولبت أن تسكت. قلت لها ينبغي أن نصوم أسبوعاً عن الطعام إذا اشتريته لها، وابدت لي استعدادها للصوم، تصورا)[34]، وهذا توظيف سردي فني لهوى الجوع شديد التأثير في المتلقي؛ يستعمل الطفولةَ والعيد والابوة في كشف الجوع، وهو عمل مؤلم وعميق، فيه امنية وتضحية من اجل طعام معين يفترض ان يكون مبذول من حق الانسان.

ويأتي هوى الجوع للدلالة على العام من حالات القهر والحرمان والقمع، بمعنى اكثر شمولاً لكل نقص في حياة الانسان، : (ألم تسأل نفسك كيف تعيش على التقاعد إذا كان الراتب نفسه لا يكفيك؟ أتريد ان تعيش شبه جائع؟ - الجوع موجود في كلتا الحالتين. إن العمل يجعلني أخسر كل يوم ذاتي وكرامتي ولا استطيع أن أستمر في ذلك)[35]، بقصد الحاجة الى كل ما هو حياتي وانساني ومهم، ليس الجوع بدلالته الحرفية فقط، فالجوع شامل يتجاوز الجسدي فقط الى ما هو معنوي وجسدي.

3. هوى التعلُّق.

ظهر هذا الهوى بوصفه حباً شديداًلأعمال وأماكن واشخاص وذاكرة مؤسسات وكتب، حباً كبيراً، وتعلقاً شديداً، حالة في النفس اثرت في اللغة فصارت خطابا مهما يقوم على هوى التعلق، فقد تعلقت شخصيات الرواية -ومنها الشخصية الرئيسة- بالجامعة والعمل الاكاديمي والبحث والقراءة والتأليف، وكل ما له علاقة بالثقافة والفكر، وظلت الجامعة والاكاديمية المكان المحبوب له، وكشف عن هواه الكبير فيها، يقول: (لم اقدم على التقاعد بسبب المرض والعجز، فما زالت الدماء تضج في عروقي طالبة مني أن اواصل نشاطي العلمي والتدريسي. لقد بلغت الآن أوج النضج الذي سعيت له وبذلت جهداً مكثفاً من أجله طول حياتي، وكان الحلم الذي يفسر معنى العيش بالنسبة لي والنجاح الذي كنت اصبو إليه)[36]، تجاوزت الذات حالة الشعور الاعتيادي تجاه الاشياء، الى حالة الحساسية الشديدة تجاهها، والشعور الكبير المفرط بالتعلق والمحبة، وصارت من خلال الخطاب حالة من الهوى، له سماته وتجليه،

تقول الشخصية الرئيسة ايضاً: (بقي ذلك الاحساس المهيب الذي خلقته في قاعات المحاضرة طاغياً على طعم المرارة والغبن... اواصل عملي في غرفة مكتبتي حيث أقضي ثلاث أو اربع ساعات في القراءة وكتابة الملاحظات أو وضع الخطوط الأولية لبحث أنوي وضعه أو اقوم بكتابته... تأكدت اليوم ان نشاطي المكتبي لا يمكن ان يصبح جزءاً منفصلاً أو مستقلاً عن عملي في الكلية... فاسمع منهم (الطلبة) عبارات الاعجاب بها والمديح لها (النجاحات).)[37]، هذا هواها، تعلقت واحبت وذابت في عملها وما يقترب منه، وهو يتجاوز مفهوم العمل الاعتيادي الى عالم من الجمال والحرية والفكر والابداع، يقول: (ومحاولات بعض الناشئة ممن لهم ولع بالكتابة أن يستفيدوا من خبرتي وقدراتي، ويتحول كل ذلك الى متعة فكرية تمثل جوهر حياتي وتنير وجودي)[38]، هي تحقق ذاتها في العمل، الذات الحزينة المستلبة، والمثقفة بالتأكيد، فيتحول الخطاب الى بعد ثقافي مهم، يقوم على هوى التعلق، نجده يتكرر عند احد الشخصيات من الاساتذة الكبار الذين فصلتهم السلطة، وعزلتهم تحت الظلم والقمع والكذب، يقول: (لقد افتقدت أشياء كثيرة كنت أتصورها عادية لا أهمية لها: تحيات الصباح العابرة وتبادل بعض العبارات مع الاساتذة، شرب الشاي قبل الذهاب الى قاعات الدرس، وجوه الطلاب المصغية لمحاضراتي، اسئلتهم، نقاشاتي حول الدين والتاريخ والأخلاق والقانون والفلسفة)[39]، ليصير العمل وابعاده حالة من المحرك لهوى عميق في النفس هو التعلق بكل ذلك المحبوب من الاشياء.

واندفعت النفس الى التعلق بالحياة، وحبها، بوصفها مرتبطة بالمكان المحبوب والعمل المُفضل بالطبع، تمسكت بها الشخصيات، واحبتها، لكنها ادركت مرارتها، يقول:(عندما بلغت الشيخوخة اعتبرتها شمس الغروب التي تظهر في أواخر العمر في ابهى ألوانها الباهتة والزاهية وهي تظلل الأفق وتعكسها على ما حولها ... لا شك ان التقاعد لا يناسبني، لأنه يعني تعطيل قواي الفاعلة والابتعاد عن الجو الذي يمور بالحركة والشباب والمعرفة..)[40]، لا تريد الذات مغادرة الحياة ونشاطها، وبهجتها، بل تنظر الى نهاية العمر او تقدمه، نظرة الجمال، وتقارنه بما تحب من جمال في الطبيعة والحياة، وتعده مرحلة من مراحل العمر، لها روحها الاخضر دائماً.

وتجلى هوى التعلق بالمكان، البيت والمدينة والناس والبلاد، وظهر شعوراً بيّناً في خطاب الروائية، في حبها للناس، نجده في حديثها عن المتقاعدين الفقراء، تقول على لسان البطل: (شعرت بقربهم مني، وأن قضية مشتركة تجمعني بهم، هي قضاء الشيخوخة تحت ظلال الخوف من المرض والحاجة والعزلة التي يحس بها المحتاج عن كل ما حوله، وكأن الدنيا تشعره بغربته وبانتهاء دورة حياته فيها)[41]، واحبت بغداد وما فيها، مكاناً ثقافياً حميماً، يقول البطل: (كنت

اشعر حقاً أنني دكتور عندما اصل الى كراج الكلية وأنزل من السيارة حاملاً حقيبة الكتب السوداء في يدي.. وامشي بخطوات الواثق من نفسه وانا اردد في دخيلتي القول المأثور: بغداد في البلاد كالأستاذ في العباد، واواصل سيري الى الكلية شاعراً بتفردي عن كل من يمرون قربي)[42]، موظفة شيئاً من التراث في القول، جامعة بين المكان والمهنة والناس في خطاب يكشف عن هوى التعلق.

وكم كشف خطابها عن الهوى التعلق بالبيت! المسكن الحميم الذي احبته، وارتبط بذكرى عظيمة وحياة لها طعم محبب عندها، وصفت البيت قائلةً: (كنت اجد فيه السكينة والامان... فانا بحاجة الى جدرانه المتينة الملساء ذات اللون الاخضر الفاتح النظيف الذي يشع بالنور... لقد احببته منذ أنشق العمال أمام عيني أساسه ووضعوا الاحجار الاولى فيه حتى تعالى وصار بنياناً متكاملاً، ألفته واندمجت فيه مع مرور الوقت)[43]، تفصيل ووصف دقيق يقرب المكان من فكرة تشكيله لهوى خاص، متعلقة به وبكل ما يمثله لها من رمزيات، تبوح بشعورها تجاهه على نحو واضح، وتبني الخطاب الذي يتيح التعامل السيميائي الصريح مع هذا الهوى الشريف.

كما نالت بغداد مكانتها المرجوة في نفس الكاتبة، متألمة لما يجرى لهذه المدينة العظيمة، فتح المؤلف حديثه ووسعه فيما يخص هذه المدينة، وما يحتفظ لها بمكانة القلب في الجسد، يقول بطله: (لم يحدث ذلك في مدينة عادية من المدن الحديثة، الكبيرة أو الصغيرة، التي تنتشر أسماؤها على خريطة العالم، وانما في مدينة عريقة ذاع اسمها وصار جرسه، اذا نطق، يتخذ معاني متنوعة في آذان سامعيه، فهو يشير الى المجد والازدهار)[44]، لم تكن بغداد مكاناً اعتيادياً عنده، ولا مدينة سهلة التصور، تألم لما اصابها من قمع وتراجع وحرمان وحزن، المدينة الذي اجتاحت مساحة كبيرة في نفسه وشعورها الفائض. يقول فيها البطل: (انها مدينة بغداد التي تعددت أسماؤها منذ ان جعلها أبو جعفر المنصور عاصمة الدولة العباسية التي اسسها وازدهرت فيها الحضارة العربية، واصبحت منارة الدنيا ..)[45]، ليكرر ما بدأه من محبة لها، وتعلق بها.

ثانياً: الاستهواء.

الاستهواء يسبق الهوى، وهو اساسٌ في تشكله، وهو (المادة التي تتشكل منها الأهواء، فبدون هذا الاستهواء لا يمكن الحديث عن أهواء، كما أنّ الأهواء وحدها ما يُشير إلى وجود مادة سابقة على تحققها الفعلي.. فإن الاستهواء هو القوة الانفعالية الكامنة التي يستند إليها خطاب

الأهواء لرسم عوالمه.)[46]، تتبلور بوساطته الاهواء، وتتحرك في داخل الذات، وتندفع مُشَكِّلةً بعداً كبيراً في الثقافة، وهو جزء مهم في نظرية سيمياء الاهواء، تنبني عليه بالتأكيد، ينتج من خلاله (تماس تشدُّ الذات إلى العالم الخارجي بعيداً عن كل التوجيهات الأولية لأي شكلٍ من أشكال الوعي ، بما فيها التصنيفات المقولية التي يأتي بها التقطيع اللغوي)[47]، ومن تصورات النظرية السيميائية، فالاستهواء عنصر تكون فيه الكينونة مختفية، إنّه نوع من الفضاء النظري الذهني، ويمثل المفاهيم القاعدية لمحاكاة تمثيل الأفق الكينوني للشروط المسبقة.[48] وهومن جهاز مصطلحات سيميائية الاهواء، ومفاهيمه الرئيسة، يكون مجاور بقول لمقولات (التوترية) و(التوتير) و(المآل) وكل العناصر الدالة على سيرورة تقود، ضمن مسار توليدي من المتصل إلى حالات الانفصال التي تمنح وحدها الهوى فرصة التحقق في نسخة خاصة.[49]

ويرتبط الاستهواء بالتوتر(حينها يرتسم التوتر باعتباره توجهاً. إن هذا التوجيه .. هو الشرط الضروري لكي يكون للاستهواء القدرة على تجسيد التركيب ، ذلك أن هذا النوع من اللاتوازن وحده يمكن أن يقود إلى بروز (شبه- لذات) وإلى نظير)[50] التوتير حالة لاحقة للاستهواء، ثم نصل الى المآل في النهاية، فيتشكل الهوى عنصراً كبيراً في الثقافة وفعل مؤثر فيها.

عندما نتابع الخطاطة الهووية المعايرية في خطاب رواية حياة شرارة هذه، نكتشف عناصرَ مهمةً في الاستهواء، دفعت في تشكيل الاهواء وبروزها وعظمتها، مناثر الظلم والحرمان والفقر والاذلال والقمع، والاشتياق والقلق، والمراقبة، وغياب العدالة، كل هذه العناصر هي التي حركت الهوى ودفعته وكبّرته، ويمكن تقسيم الاستهواء في هذه الرواية الى مجموعتين المعطيات، هي:

أولاً: معطيات توترية ذاتية، خاصة بالكاتبة، بذاتها من الوعي الكبير، والثقافة الواسعة، والتوجه الايديولوجي الخاص، والمهنة في الجامعة، استاذ جامعي ومؤلف مرموق، والذات الكريمة، والنفس العظيمة، وهذه دفعت الى التعلق والاندفاع بالحب الى الاشياء والناس، ومنها الظلم المباشر والاستهداف المنظم، مما انتج الخوف وما إليه، تقول على لسان البطل: (إضافة الى ان الحصار أيقظ فيَّ، وفي غيري أيضاً، حاسة الخوف اللاشعوري من الجوع الذي يقيم شبحه في منطقة اللاوعي، مما جعلني أزيد من كمية الطعام التي اتناولها واجد في نفسي استعداداً غريباً للأكل باستمرار ما دام يوجد شيء ممكن أكله)[51]، هذه عناصر استهواء بينة، دفعت الى صناعة هوى الجوع والخوف، فعنصر الكرامة، وما يتعلق به، والانتقاص من المثقفين بالإذلال المتعمد، في حالة وجود اساتذة جامعيين، يقفون اذلاء على باب الجمعية التعاونية في الجامعة، هذا

استهواء دفع الى هوى آخر، تقول الشخصية: (ردٌ آخر..- لو كانت لدينا كرامة لما رضينا بهذه الوقفة المهينة لنا! إنني أول من يدوس على كرامته ولا يعيرها بالاً لأنني أفضل بطني عليها!)[52]، هذا الوضع المحرج دفع الى شعور في النفس، وحالة من الخلخلة، انتجت هوى، من الخوف بالتأكيد.

وضع الفقر الشديد، والحاجة، وهموم الحصار، والعوز، دفعت الى الخوف والجوع، تقول الشخصية الرئيسة: (سألنا احد البائعين عن سعر البيضة وكان الجواب خمسين ديناراً! تركناه ومشينا محبطين ونحن نهرب منه ومن أنفسنا ومن الشعور بالمهانة الذي يولده الفقر ويحط من قدرنا وقيمتنا إلى مستوى منهم في قاع المدينة وزواياها المعتمة المنسية)[53]، الفقر والحاجة حفزا النفس الى هواها، وصار الخطاب الآخر، ثم صال الاثر لهذا الهوى.

ثانياً: معطيات توترية ذات محافل ثقافية، تتجاوز الذات الفردية الى الجماعات، الى الناس، من الأمكنة العامة، والناس، وهي الحالات التي تعرض لها المجتمع في الزمن الذي غطته الرواية، الحصار ومشكلاته في الناس، الحروب، السلطة، الادارة الفاسدة التي انتجتها السلطة، الفقر العام وتردي التعليم، وتراجع الحريات، فد تحدثت الرواية بصوت الناس جميعهم، هكذا (اصبحنا في السنة الرابعة من الحصار لا نذوق اللحوم الحمراء إلا نادراً، أما الدجاج والسمك فصرنا نكتفي برؤيتها في السوق ونغبط أولئك الناس الذين مازال في وسعهم تناولها)[54]، هذا جوع عام، وفقر شامل، وقد صار الخطاب في هذه الحالات هو خطاب العام، المجموع، بصيغ الجماعة، يقول البطل: (لم يخطر ببالي تأثير المأكولات فينا الا بعد الحصار عندما اصبحت مقننة وحرمنا من كثير مما تشتهيه أفواهنا. انها تشكل دوماً جزءاً أساسياً من افراحنا فترافق ايام الاعياد والاعراس)[55]، هو يقول (فينا/ حرمنا/ افواهنا/ افراحنا) بنحو المجموع، بما يؤثر فيهم جميعاً، وينتج اهواء مشتركة عندهم جميعاً.

وقد كانت السلطة، والادارة، من عناصر الاستهواء العامة الخطيرة في المجتمع، اثَّرت في ذوات الناس، وحركت نفوسهم في اتجاهات معينة، يقول البطل: (اسرعت الخطى، ومعها غذا الخوف خطاه في داخلي، فقد انتصبت امامي هيئة العميد الذي اعتاد أن يقف عند باب الكلية في الصباح ليمسك بكل من يحتمل تأخره، .. من الاساتذة والطلاب، فلا يدعهم يدخلون بأمان)[56]، هذا الحال المزري، المنفِر للأمان، تطور وتراكم فصار استهواءً كبيراً دافعا لتشكيل هوى الخوف الفظيع، الذي هيمن على نفوس الذوات البشرية التي عاشته عامة.

والسلطة المتمثلة بمجلاها الاعنف والاقبح، الامن، كانت عنصرا في الاستهواء، السلطة التي اخافت الجميع بعناصر الامن، ودفعتهم الى الخوف، يقول البطل: (خرجنا في الساعة المتفق

عليها واستقلينا التاكسي ونزلنا منها قبل الوصول الى بيته، فقد كنا نخشى أن يكون السائق من رجال الامن الذين يكثرون بين سائقي التاكسيات والسيارات العامة... بينما حاولت عيوننا أن تتأكد من عدم وجود شخص ما أو أكثر يصاحبنا من بعيد)[57]، لا يمكن ان يمر هذا الخوف الهائل والقلق والترقب، من دون تنشيط لهوى الحوف والرعب، والارتجاف الدائم.

ثم أن اليأس العام اخذ مأخذه بوصفه عنصرا في عناصر ومعطيات الاستهواء القوية، دفع الناس مجتمعين الى احساس عام بالخوف، يقول البطل: (لقد ادرك الجميع أن الهزيمة شاملة وكذلك يجب أن يكون الإقرار بها والاستسلام لها.. غير أن الناس لا يمكن أن يبقوا هم انفسهم بعد كل ذلك الفزع والحرمان والذل الذي تعرضوا له وبعد أن فقدوا الحلم الذي يزهو بالحياة ويجعلها جميلة. عندئذ جاءهم اليأس ومد لهم ذراعه، فتأبطوها..)[58]،

ثالثاً: قوانين بناء معنى الاهواء.

ينبني المعنى في الاستهواء على طرائق، ينكشف من خلالها شكل المعنى في الخطاب، وهذه القوانين فيها عنصران مهمان، هما: المحايثة والاختلاف، والمحايثة هي شكل المعنى الناتج عن تسلسل الحالات والتحولات ، والعلاقات الرابطة بين العناصر النصية، والاختلاف يقومعلى فكرة إن المعنى لا يوجد إلا بالاختلاف ، ولا يمكن لعناصر النص أن تكون مفيدة إلا بموجب علاقاتها فيما بينها ، فلا وجود للعناصر مجزأة ولا وجود لعناصر خارجها ، فيقضي الاقتراب من المسألة الدلالية استيعاب الاختلافات المنتجة للمعنى[59].

1. متابعة منطق الحكي، وتتابع مفاصل المعنى، وانتقالاته ، ويكون هذا من خلال (تحديد منطق الحكي كما نجد عند ((بريمون) لكشف الاحتمالات السردية للأدوار والحبكات في المحكي ، ومن خلال الاهتمام بعمليات إنتاج المعنى وتمفصله، انطلاقاً من البنيات السردية السطحية والعميقة كما نعثر على هذا عند غريماس وكورتيس)[(60)]، وقد ظهر هذا التسلسل المنطقي في بناء رواية إذا الأيام أغسقت، اذ بدأ المعنى بداية فيها أمل وترقب لما هو خير، ثم وصل الى مرحلة تردد وقلق في فقدان الامل، ثم الى مرحلة اليأس، ثم انتهت الرواية بحالة تسليم واستسلام تامين، وخضوع الى النهاية الحتمية التي اغلقت فيها الروائية روايتها، فقد وصلت الحالة الى ذروتها، وهي اليأس التام، وجاءت النهاية لتحكي هذا الاستسلام باليأس، بهذا الصوت الضعيف: (غَذَذتُ الخطى مثلهم وانا استحث آخر قواي التي اخذت تخونني واحاول ان اسوطها بسياط حصان مرهق عليه ان يبلغ نهاية الشوط المقرر له. هكذا ستكرر بداية وخاتمة كل يوم: اطاعة الاوامر، ومخالفة رغبات النفس واجبارها على الصمت... انها تنفذ وتطيع وهي تنظر الى سيف الخوف

الشاخص... هكذا سار الجنود بصفوف متناسقة ... وانتهوا الى حتفهم، وهكذا سارت جموع الناس زرافات من تحتها، وها انا ذا اتبعهم برأس مطأطئ وانحشر بينهم واصبح جزءاً من تلك الكتلة البشرية المتراصة التي تحمل صلبانها وتسير فوق أرض ترابها من رماد، رماد الحرائق المنظورة وغير المنظورة التي عاشوها)[61]، هذا هو النص الاخير في الرواية، نهايتها الحزينة الضعيفة المستسلمة، انتهت بها، بمعنى يقوم على الموت، بعد صراع طويل مع السلطة والازمات وحيرة الذات وانكساراتها، وهو الجوع والخوف والتعلق، بتسلسل منطقي للمعنى والاحداث.

2.عنصر الاختلاف.

هذا عنصر مهم في بناء المعنى في هذه الرواية، ظهر فيه التناقض والمفارقة في الاحساس بالشيء، والموقف منه، وتوجيه هوى النفس اليه، والارتباك في التعامل معه، ظهر عندنا في هذه الرواية في هوى الجوع، في العلاقة بالجسد ورغباته المتعلقة بالطعام، والسماح والحرمان، عندما طرحت الروائية قضية اجبار الاساتذة الجامعيين على الحفاظ على وزن معين لأجسادهم، فصاروا يجوعون مجبرين لإنزال اوزانهم، وهذا يخالف رغباتهم بالطعام، وحريتهم فيه، يقول البطل: (أخذت أهتم بتخفيف وزني، فقد توجب علي المحافظة عليه ضمن مستوى معين لا يمكن أن أتجاوزه. لم يجر بإرادتي، لأني أحب أن أكون حراً في تناول كمية الطعام الذي ارغب فيه وأصنافه، وكانت آخر حرية لي امارسها مع غيري واتحكم فيها... غير انها سلبت مني فجأة عندما صدرت تعليمات تقضي أن يوزن الأساتذة من أجل أن يحافظوا على لياقتهم البدنية)[62]،وهنا تكون المفارقة، الجوع الاجباري، من اجل انزال الوزن، ليس من سبب الفقر والحرمان، بل بسبب السلطة، لتستمر الرواية في عرض حالات من تعرض لهم هذا الحرمان، تقول: (لقد اضطر أن يمتنع خلال الاسبوع الاخير عن تناول أي طعام ما عدا الخضروات، لم يشرب ماءً في الليل وأخذ مدرراً في الصباح الباكر لتقل السوائل في جسمه الى اقصى حد ممكن. كان عليه أن يتخلص خلال ذلك الاسبوع من زيادة أربعة كيلو غرامات من وزنه. أما صبحي فبدا كالصائم في منتصف شهر رمضان)[63]، وصف دقيق لظروف معلوم، وافكار طبقتها السلطة، استثمرت فيها الروائية اللغة في وصف الاطعمة المشتهاة، وحالات النفس المتعلقة بها،(جلبت ايضا علبة البقلاوة المحشوة بالفستق الحلبي. كان ذلك الغذاء اللذيذ رداً على الحرمان منكل ما اشتهيه من طعام، وسخرية من تلك اللياقة البدنية الهشة الباهتة التي فرضت عليّ واسترجاع جسمي لرغباته التي يريد تحقيقها)[64]، في صراع مع الجسد والعقل والسلطة، واختلاف في المشاعر والمواقف من الجوع.

كما ظهر الاختلاف في هوى التعلق، التعلق والكره في الوقت نفسه، في الرغبة بالمغادرة والبقاء في الوت نفسه، هذا في الشعور اتجاه الجامعة، طلب التقاعد المبكر من العمل، والاصرار عليه، على الرغم من الحب الكبير للجامعة، والسعي الى خدمتها، والتعلق بها، وهذا يشكل مفارقة الاختلاف في الهوى.

3.التسمية

اعطت الروائية اللغة حقها وافياً في الاهواء، وتحدثت بلغة صريحة مرتبطة بالتسميات الحقيقية للهوى، وكتبت مساحات واسعة من الرواية واصفة هذا الاهواء، لم تلمح لها بل صرحت بها، الخوف والفزع والخشية، والجوع والحرمان والفقر، كلها بتسمياتها، وصفت الطعام واستوفته، بتفصيلاته الدقيقة، وبتسمياته، فجعلت اللغة وسيلة مهمة، وآلية دقيقة في تقديم الاهواء، تقول الروائية على لسان البطل: (... جلب صينية كبيرة التي لابد أن تكون زوجته قد اتت بها، عليها فناجين الشاي وصحنان، في احدهما سندويشات بالجبن وأخرى بالهمبرغر وفي الثاني كيك اسفنجي مما يصنع في البيت... اخذنا نشرب الشاي ونأكل السندويشات بشهية وتلذذ واشعرنا طعمهما وروائحمها والحديث الهادئ .. بالدفء والاسترخاء والعاطفة الحميمة)[65]، بوصف هادئ مسهب وصريح، وبتسميات واضحة، تشرح وتوضح وتقرِّب المعنى، تقول: (تناولت العشاء المتكون من العجين المقلي المخلوط بالجزر المسلوق والمفروم والكرفس وهما من ارخص أنواع الخضار. إن زوجتي تسمي هذا الطعام كباباً، فهي تصر على التمسك بنمط الحياة الماضية عندما كنا نتناول بالعشاء الكباب الحقيقي المكون من اللحم أو الهمبرغر أو المخلمة المصنوعة من البيض واللحم المثروم)[66]، وهذه لغة مكتنزة وافية، وهي في صميم نظرية سيميائية الاهواء، بعنصر التسمية للهوى وما يتعلق به.

4.الحلم، استعملت الرواية تقنية الحلم في تقديم هوى الجوع، إذ رافق الجوع الناسَ في يقظتهم واحلامهم، يحلمون بالطعام والشراب، ويهيمن على حيز كبير من تفكيرهم، يقول احد ابطال الرواية: (علق ياسين: لقد حلمت قبل يومين أنني أجلس إلى مائدة شهية، عليها طبق فيه دجاجتان محمرتان بالفرن ومحشوتان بالرز والفطر واللوز واللحم، والبخار يتصاعد منهما والطبقة الشحمية تحت جلديهما تذوب وتنز ولمع عليها ناشرة رائحة ... وهناك صحن كبير من السلطة... أكلت وشربت وحدي)[67]، انهم مساكين، جياع، يستهويهم الطعام فيحلمون به مثل العشاق، ويرجُون لقاءه، ثم يكمل البطل قائلاً: (لقد اوحى لي هذا الحلم بكاريكاتير سيصدر قريباً في المجلة تحت عنوان " امنية موظف" إنه من روائع اعمال)[68]، وكأن الروائية انتهت الى اهمية

الحلم ومكانته في نقل الاهواء، فعادت وربطت المائدة بالحلم، وجعلت البطل يقول: (لقد بددت له تلك المائدة – الحلم، كل الحرمان الذي عانيته وحققت رغباتي غير المشبعة)[69].

واستمرت، واضافت حلم الخوف والرعب من ملحمة كلكامش، عندما جعلت هذا الاستاذ الآثاري يقرأ نصاً من الملحمة الشهيرة، يقوم على معنى الخوف والرعب والنار والموت والفزع، نصه: (يا صاحبي، رأيت رؤيا ثالثة! والحلم الذي رايته مرعب، كارثة، لعلعت السماء، وضجت الغبراء، وغاب ضوء النهار، وأطبق الظلام، واومض البرق، وشبت النار، ... وانقطع الضجيج وكل ما كان غدا رماداً)[70]، محافظة على تسمية الخوف في روايتها، وهي جديدة بأن تكون رواية الخوف والجوع، لا سيما وأن تسمية الخوف تذهب في لسان العرب الى الفزع والقتل والقتال[71]، وكله حاصل في روايتها.

نتائج البحث:

بعد هذه القراءة في رواية (إذا الأيام أغسقت) للروائية حياة شرارة، تظهر لنا بعض النتائج التي يمكننا عدها نتائج جديدة، منها:

إن السيميائية تطورت- بجهود كريماس وفونتيني- الى اتجاه جديد هائل في قراءة الخطابات، هو سيميائية الاهواء، يتجه الى قراءة حالات النفس، واهوائها.

لحياة شرارة، وبوصفها اكاديمية ومؤلفة وكاتبة كبيرة، اهمية فائقة في دراسات الادب في العراق؛ لأنها تمثل حالة فريدة من ازمة المثقف العراقي والسلطة، وقمعه ومنعه واقصائه، وايصاله الى قرار انهاء الحياة الارادي المبكر.

رواية إذا الأيام أغسقت، رواية مهمة؛ لأنها رواية الحقبة، حقبة الحصار، كتبها اكاديمي جيد، ودارت احداثها في مكان خاص جدا، هو الجامعة، كشفت ابتلاع السلطة للاكاديمية العراقي، وتراجع التعليم وقيمه واعرافه.

النسق الطاغي في بناء هذه الرواية المعنوي هو هوى الخوف، هي رواية الخوف والخائفين، انتشر على مساحة الرواية كلها، له تجليات وانواع وصور وحالات، خوف الذات المفردة، وخوف الناس، خوف من السلطة والموت والنهايات والجوع والقمع.

والهوى الثاني المهيمن هو هوى الجوع، اسبابه وحالاته وضغوطه على النفس، ولغته وتسميات.

الهوى الثالث المهيمن هو هوى التعلق، التعلق بالمكان والعمل والناس والحياة والجمال.

ظهر في هذه الرواية عنصر مهم من عناصر نظرية سيمياء الاهواء، تجلى في النص السردي، هو الاستهواء، وهو فردي وجماعي منتصر في المجتمع، منه الفقر والحصار والحرمان والسلطة والقمع الاذلال والاهانة والتخويف.

من تقنيات الروائية في تقديمها الاهواء، استعمالها اللغة التي تقوم على التسمية المباشرة، وتوظيف الحلم، والاختلاف والمفارقة.

الهوامش:

---

[1] - سيميائية مدرسة باريس، المكاسب والمشاريع (مقاربة إبستمولوجية) محمد بادي، عالم الفكر ، ع/3، م/ 35، 2007، 290.

[2] - السيميولوجيا بين النظرية والتطبيق، جميل حمداوي، مطبعة الوراق للنشر والتوزيع ، ط1، عمان- الأردن، 2011، 56.

[3] - سيميائية مدرسة باريس ، المكاسب والمشاريع (مقاربة إبستمولوجية): 291- 292.

[4] - في المعنى، الجيرداس جوليان غريماس، تر: نجيب غزاوي، مطبعة الحداد، اللاذقية. ، 13.

[5] - علم الإشارة السيميولوجيا، بيير جيرو، تر: منذر عياشي ، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق ، 20.

[6] - ينظر: نحو سيميائية إجرائية، مجموعة من الباحثين، تر: نصر الدين بن غنيسة ، مراجعة يوسف إسكندر، دار دجلة الاكاديمية، ط1، بغداد- العراق، 2022، 29.

[7] - سيمياء العواطف من السيمياء الأدبية، دوني بيرتران تر: عمي ليندة، من السيمياء الأدبية لدوني بيرتران، مجلة تحليل الخطاب ، ع/ 6، 2010م. ، 310.

[8] - سيميائيات مدرسة باريس : المكاسب والمشاريع (مقاربة ابيستمولوجية) : 303.

[9] - سيمياء العواطف من السيمياء الأدبية : دوني بيرتران: تر: عمي ليندة ، 309.

[10] - سيميائيات الأهواء (من حالات الأشياء إلى حالات النفس): ألجيرداس.ج. غريماس وجاك فونتني، تر: سعيد بنكراد، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، بيروت- لبنان، 2010: 17.

[11] - الأهواء، جيروم انطوان روني، تر: سليم حداد، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، بيروت- لبنان ، 1408هـ- 1987م.

[12] - سيميائيات الأهواء (من حالات الأشياء إلى حالات النفس): 9.

[13] - المصدر نفسه: 10-11.

[14] - مستجدات النقد الروائي، جميل حمداوي، مكتبة الألوكة، ط1، 2011، 31.

[15] - ينظر: سيميائيات الأهواء: (من حالات الأشياء إلى حالات النفس): 11

[16] - ينظر: حقول سيميائية، (السيميائيات الاجتماعية، سيميائيات المسرح، سيميائيات التلقي)، إعداد وترجمة: محمد التهامي العماري ، مطبعة آنفو- برانت، فاس، 2007م. 36-37.

[17] - ينظر: القيمة والمعيار، (مساهمة في نظرية الشعر): يوسف سامي اليوسف، دار كنعان ، دمشق ، 2017م. 116.

[18] - ينظر: سيمياء المرئي، جاك فونتاني، تر: علي أسعد، دار الحوار، ط1، اللاذقية- سورية، 2003م، 87- 88.

[19] .إذا الأيام أغسقت، حياة شرارة، دار المدى، دمشق، ط1، 2011، 94.
[20] . المصدر نفسه، 95.
[21] . المصدر نفسه، 269.
[22] . المصدر نفسه، 95.
[23] . إذا الأيام أغسقت، 99.
[24] . المصدر نفسه، 100.
[25] . إذا الأيام أغسقت، 96.
[26] . اذا الايام أغسقت، 104.
[27] . المصدر نفسه، 102.
[28] . المصدر نفسه، 180.
[29] . إذا الأيام أغسقت، 106.
[30] . إذا الأيام أغسقت، 197.
[31] . المصدر نفسه، 354.
[32] . إذا الأيام أغسقت، 92.
[33] . المصدر نفسه، 103.
[34] . المصدر نفسه، 114.
[35] . إذا الأيام أغسقت، 269.
[36] . إذا الأيام أغسقت، 93.
[37] . إذا الايام اغسقت، 143.
[38] . إذا الايام اغسقت، 143.
[39] . إذا الأيام أغسقت، 156.
[40] . إذا الأيام أغسقت، 94.
[41] . إذا الايام أغسقت، 93.
[42] . اذا الايام اغسقت، 183.
[43] . اذا الايام اغسقت، 210.
[44] . اذا الايام اغسقت، 98.
[45] . اذا الايام اغسقت، 98.
[46] . سيميائيات الأهواء (من حالات الأشياء إلى حالات النفس): 31.
[47] . سيميائيات الأهواء (من حالات الأشياء إلى حالات النفس): 32.
[48] . ينظر: السيميائيات العملية والعرفانية والهووية (مجلة سرود): 66.
[49] . سيميائيات الأهواء (من حالات الأشياء إلى حالات النفس):: 32.
[50] - سيميائيات الأهواء (من حالات الأشياء إلى حالات النفس): 81-82.
[51] . إذا الايام أغسقت، 311.
[52] . إذا الايام أغسقت، 348.

[53] . إذا الأيام أغسقت، 131.
[54] . إذا الأيام أغسقت، 236.
[55] . إذا الأيام أغسقت، 311.
[56] . اذا الايام اغسقت، 100.
[57] . اذا الايام اغسقت، 152.
[58] . إذا الايام اغسقت، 97.
[59] . ينظر: في تحليل الخطاب الشعري (دراسة سيميائية) : عصام واصل، (دراسة سيميائية)، عصام واصل، دار التنوير، ط1، الجزائر،2013م.، 13. ومقدمة في السيميائية السردية، رشيد بن مالك، دار القصة للنشر، الجزائر، 2000، 9-10.
[60] - تأويل النص (من الشعرية إلى ما بعد الكولونيالية) محمد بو عزة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط1، بيروت – لبنان، 2018، 23.
[61] . اذا الايام اغسقت، 367.
[62] . إذا الأيام أغسقت، 289.
[63] . إذا الأيام أغسقت، 303.
[64] . إذا الأيام أغسقت، 305.
[65] . المصدر نفسه، 156.
[66] . إذا الأيام أغسقت، 236.
[67] . المصدر نفسه، 129.
[68] . إذا الأيام أغسقت، 130.
[69] . المصدر نفسه، 130.
[70] . اذا الايام اغسقت، 215.
[71] .ينظر: لسان العرب، ابن منظور، الجزء التاسع، دار صادر، بيروت، 99، 100.

المصادر:

- إذا الأيام أغسقت، حياة شرارة، دار المدى، دمشق، ط1، 2011.
- الأهواء، جيروم انطوان روني، تر: سليم حداد، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، بيروت- لبنان ، 1408هـ- 1987م.
- تأويل النص (من الشعرية إلى ما بعد الكولونيالية) محمد بو عزة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط1، بيروت – لبنان، 2018.
- حقول سيميائية، (السيميائيات الاجتماعية، سيميائيات المسرح، سيميائيات التلقي)، إعداد وترجمة: محمد التهامي العماري ، مطبعة آنفو- برانت، فاس، 2007.
- سيمياء العواطف من السيمياء الأدبية، دوني بيرتران تر: عمي ليندة، من السيمياء الأدبية لدوني بيرتران، مجلة تحليل الخطاب ، ع/ 6، 2010.
- سيمياء المرئي، جاك فونتاني، تر: علي أسعد، دار الحوار، ط1، اللاذقية- سورية، 2003.

- سيميائيات الأهواء (من حالات الأشياء إلى حالات النفس): ألجيرداس.ج. غريماس وجاك فونتني، تر: سعيد بنكراد، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، بيروت- لبنان، 2010.
- السيميائيات العملية والعرفانية والهووية، السيميائيات العملية والعرفانية والهووية : أ.ج. ريماس وج. فونتانيل: سيميائية الأهواء: باولوفابري وبول بيرون : تر: رشيد بن مالك، سرود مجلة النقد الأدبي (سرد الأهواء) ، العدد الرابع 2020.
- سيميائية مدرسة باريس، المكاسب والمشاريع (مقاربة إبستمولوجية) محمد بادي، عالم الفكر ، ع/3، م/ 35، 2007.
- السيميولوجيا بين النظرية والتطبيق، جميل حمداوي، مطبعة الوراق للنشر والتوزيع ، ط1، عمان- الأردن، 2011.
- علم الإشارة السيميولوجيا، بيير جيرو، تر: منذر عياشي ، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق.
- في المعنى، الجيرداس جوليان غريماس، تر: نجيب غزاوي، مطبعة الحداد، اللاذقية.
- في تحليل الخطاب الشعري (دراسة سيميائية) : عصام واصل، (دراسة سيميائية)، عصام واصل، دار التنوير، ط1، الجزائر،2013.
- القيمة والمعيار، (مساهمة في نظرية الشعر): يوسف سامي اليوسف، دار كنعان ، دمشق ، 2017.
- لسان العرب، ابن منظور، الجزء التاسع، دار صادر، بيروت.
- مستجدات النقد الروائي، جميل حمداوي، مكتبة الألوكة، ط1، 2011.
- مقدمة في السيميائية السردية، رشيد بن مالك، دار القصة للنشر، الجزائر، 2000.
- نحو سيميائية إجرائية، مجموعة من الباحثين، تر: نصر الدين بن غنيسة ، مراجعة يوسف إسكندر، دار دجلة الاكاديمية، ط1، بغداد- العراق، 2022.

المصادر العربية باللغة الانكليزية

•If the Days Have Dusk, Hayat Sharara, Dar Al-Mada, Damascus, 1st edition, 2011.

•Passions, Jerome Antoine Ronnie, Trans.: Salim Haddad, Majd Al-Jami'i Foundation for Studies, Publishing and Distribution, 1st edition, Beirut - Lebanon, 1408 AH - 1987 AD.

• Interpreting the text (from poetics to postcolonialism) Muhammad Bou Azza, Arab Center for Research and Policy Studies, 1st edition, Beirut - Lebanon, 2018.

•Semiotic fields, (social semiotics, theater semiotics, reception semiotics), prepared and translated by: Muhammad Al-Tahami Al-Ammari, Invo-Brand Press, Fez, 2007.

•The Semiotics of Emotions from Literary Semiotics, by Dony Bertrand TR: My Uncle Linda, from The Literary Semiotics of Dony Bertrand, Journal of Discourse Analysis, issue 6, 2010.

• Alchemy of the Visual, Jacques Fontane, Trans.: Ali Asaad, Dar Al-Hiwar, 1st edition, Lattakia - Syria, 2003.

• The semiotics of the passions (from states of things to states of the soul): Algirdas, J. Greimas and Jacques Fontenay, Trans.: Said Benkarad, United New Book House, 1st edition, Beirut - Lebanon, 2010.

• Practical, cognitive, and identity semiotics, Practical, cognitive, and identity semiotics: A.J. Remas and J. Fontanelle: The Semiotics of Passions: Paolo Fabbri and Paul Perron: Trans: Rashid Ben Malek, Narratives of the Journal of Literary Criticism (Narration of Passions), Fourth Issue 2020.

•The semiotics of the Paris School, gains and projects (an epistemological approach) Muhammad Badi, The World of Thought, issue 3, issue 35, 2007 .

•Semiology between theory and practice, Jamil Hamdawi, Al-Warraq Press for Publishing and Distribution, 1st edition, Amman - Jordan, 2011.

•Semiotics, Pierre Giraud, Trans. Munther Ayashi, Talas for Studies, Translation and Publishing, Damascus .

•In Meaning, Algirdas Julian Greimas, Trans.: Najib Ghazawi, Al-Haddad Press, Latakia .

•On the analysis of poetic discourse (semiotic study): Issam Wasel, (semiotic study), Issam Wasel, Dar Al-Tanweer, 1st edition, Algeria, 2013 .

• Value and Standard, (A Contribution to the Theory of Poetry): Youssef Sami Al-Youssef, Dar Kanaan, Damascus, 2017.

•Lisan al-Arab, Ibn Manzur, Part Nine, Dar Sader, Beirut.

•New developments in novel criticism, Jamil Hamdawi, Al Alouka Library, 1st edition, 2011.

•Introduction to Narrative Semiotics, Rashid Ben Malik, Dar Al Qissa Publishing House, Algeria, 2000 .

• Towards procedural semiotics, a group of researchers, translated by: Nasr al-Din bin Ghanisa, reviewed by Youssef Iskandar, Dijlah Academic Publishing House, 1st edition, Baghdad - Iraq, 2022.

The social form of passion in Sharara's novel(If the days darken by choice)

Prof Dr. AZEEZ HUSSIN ALI
College of Education for Human Sciences-
Al-Muthanna University
Dr.azeezali@mu.edu.iq

Keywords : Hayat Sharara , novel, semiotics

Summary:

This is a study in modern literary criticism, which studies the novel (If the Days Have Dusk) by the Iraqi novelist Hayat Sharara, and takes the semiotics of desires as our critical approach to reading the literary text, and Hayat Sharara, an important novelist, translator, and academic, who lived in Iraq from 1935 to 1997. She worked as a professor of Russian literature at the University of Baghdad, and was subjected to repression and persecution by the political authority in Iraq, because of her special intellectual direction and her noble stance towards humanity at that time. She wrote about Russian literature, modern literary criticism, and translation. , Her novel (If the Days Have Dusk) is one of the most important Iraqi novels in the era of the economic blockade on Iraq. We studied it in light of the semiotic approach, the semiotics of desires in particular, and we presented a theoretical framework about the theory of desires in semiotics. Then we studied the passion of fear, the passion of hunger, and the passion of attachment, and the transformation of these desires into action. Influential cultural, then we went to the most important results of the research, and we used the sources of modern literary criticism, semiotics, and the sources of modern narration, and we found that this novel deserves study, analysis, and criticism.